خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ٢٠٢٥/٦/٢٧

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

كان الحديث في الخطبة الماضية جاريا عن وصول النبي ﷺ قرب مكة بهدوء ونزوله هناك. فأمر النبي ﷺ بإشعال عشرة آلاف نار. ولما رآها أبو سفيان وأصحابه فزعوا بشدة. وقد سبق بيان هذا الحادث وسأذكر الآن بعض التفاصيل الأخرى. يقول سيدنا المصلح الموعود رضي الله عنه في موضع: لما كان العباس وأبو سفيان صديقين قديمين، فقد أصرّ العباس على أن يحمل أبا سفيان على دابته ليذهبا إلى الرسول ﷺ، وأمسك بيدَي أبي سفيان وأركبه على الدابة، ثم ركل البعير فوصلا إلى مجلس النبي ﷺ. كان العباس يخشى أن يقتل عليٌّ (الذي كان يحرس النبي ﷺ معه) أبا سفيان، ولكنه ﷺ كان قد أعطى أمر سلفا لكل من يلقى أبا سفيان ألا يحاول قتله. أثّرت هذه الأحداث في نفس أبي سفيان بعمق شديد، إذ قد رأى أنه وأصحابه كانوا قد أكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج من مكة مع رفيق واحد معه ولم تمض سوى سبع سنوات وها هو الآن يفتح مكة بجدارة ودون ظلم واعتداء مع عشرة آلاف من أتباعه المخلصين، ولا يجد أهل مكة قدرة لمقاومته.

وهكذا عندما وصل أبو سفيان إلى مجلس رسول الله ﷺ، كان قد أصابه الذهول والحيرة بسبب تلك الأفكار وبسبب الرهبة والخوف. فلما رأى رسول الله ﷺ حاله هذه، قال للعباس: خذ أبا سفيان معك واجعله يبيت عندك، وأحضرْه إليّ في الصباح. فبات أبو سفيان تلك الليلة مع العباس. ولما أحضره إلى رسول الله ﷺ في الصباح، كان وقت صلاة الفجر. وما كان أهل مكة يعرفون شيئا عن النهوض للصلاة في الصباح. رأى أبو سفيان المسلمين يأتون ويذهبون هنا وهناك حاملين أباريق مملوءة بالماء، ورأى أن بعضهم يتوضأ وبعضهم ينتظم في الصفوف. فظن أبو سفيان أنه ربما قد دُبر له نوع جديد من العذاب. فسأل العباس مذعورا: ماذا يفعل هؤلاء الناس في الصباح الباكر؟ قال العباس: لا حاجة بك للخوف، إن هؤلاء الناس يستعدون للصلاة. بعد ذلك رأى أبو سفيان آلافاً مؤلفة من المسلمين يقفون خلف رسول

الله ﷺ، فإذا ركع ركعوا جميعاً، وإذا سجد سجدوا جميعاً. وبما أن العباس لم يشارك في الصلاة لكونه في مهمة الحراسة، سأله أبو سفيان: ماذا يفعلون الآن؟ أرى أن كل ما يفعله محمد (رسول الله ﷺ)، يفعله هؤلاء الناس. قال العباس: في أي أفكار أنت خائض! إنهم يصلّون الصلاة، ولو أمرهم محمد رسول الله ﷺ أن يتركوا الطعام والشراب لتركوا. قال أبو سفيان: لقد رأيت بلاط كسرى وبلاط قيصر أيضاً، ولكن لم أر أقوامهم مخلصين لهم بقدر إخلاص جماعة محمد رسول الله ﷺ له. ثم قال العباس: ألا تطلب اليوم من محمد رسول الله ﷺ أن يعامل قومك بالعفو. ولما انتهت الصلاة، ذهب العباس بأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ. قال ﷺ: يا أبا سفيان، ألم يحن الوقت بعد لتتضح لك الحقيقة أنه لا إله إلا الله؟ قال أبو سفيان: "فداك أبي وأمي، أنت أحلم الناس وأشرفهم وأوصلهم للرحم. لقد فهمت الآن أنه لو كان هناك إله غير الله لساعدنا شيئاً ما. بعد ذلك قال رسول الله ﷺ: يا أبا سفيان، ألم يحن الوقت بعد لتفهم أني رسول الله؟ قال أبو سفيان مرة أخرى: فداك أبي وأمي، ما زالت في قلبي بعض الشكوك بهذا الشأن. ولكن رغم تردد أبي سفيان، أسلم رفيقاه اللذان جاءا معه من مكة لاستطلاع أخبار جيش المسلمين، وكان أحدهما حكيم بن حزام. ثم أسلم أبو سفيان أيضاً، ولكن لعل قلبه انشرح تماماً بعد فتح مكة.

بعد إسلامه قال حكيم بن حزام: يا رسول الله، هل جئتَ بهذا الجيش لتهلك قومك؟ قال رسول الله ﷺ: هؤلاء الناس ظلموا وأذنبوا، وأنتم نقضتم العهد الذي أبرمتموه في الحديبية، وحاربتم خزاعة ظلما، وحاربتم في هذا المكان المقدس الذي أعطاه الله الأمان. قال حكيم: يا رسول الله، صحيح أن قومك فعلوا ذلك، ولكن كان ينبغي لك أن تهاجم قوم هوازن بدلاً من مهاجمة مكة. قال رسول الله ﷺ: هؤلاء القوم أيضا ظالمون ولكني أرجو من الله أن يتم على يدي كل الأمور أي فتح مكة وغلبة الإسلام وهزيمة هوازن.

بعد ذلك قال أبو سفيان: إذا لم يحمل أهل مكة السيف، فهل سيكونون في أمان؟ قال ﷺ: نعم، كل مَن يغلق باب بيته سيُعطى الأمان. قال العباس: يا رسول الله، أبو سفيان رجل يحب الفخر، يعني أنه يريد تدبيرا لكرامته. قال ﷺ: حسناً، من دخل بيت أبي سفيان فله الأمان أيضاً، ومن دخل المسجد الحرام فله الأمان أيضاً، ومن ألقى سلاحه سيُعطى الأمان كذلك، ومن أغلق بابه سيُعطى الأمان، ومن دخل بيت حكيم بن حزام فله الأمان أيضاً.

لقد ذكر سيدنا المصلح الموعود عليه السلام كل هذه التفاصيل في كتابه "مقدمة تفسير القرآن الكريم".

ويقول المسيح الموعود عليه السلام بهذا الشأن: كان أبو سفيان في زمن النبي ﷺ رجلاً ضعيف القلب جداً وقليل الفراسة. عندما فتح النبي ﷺ مكة، قال له: "ألم تفهم حتى الآن؟ أي ألم تعرف إلى الآن أن هذا ليس عمل إنسان؟" فقال أبو سفيان: لقد فهمتُ الآن أن إلهك صادق، لو كان في هذه الأصنام قدرة لساعدتنا في هذا الوقت.

ثم عندما سأله النبي ﷺ: هل تؤمن بنبوتي؟ أظهر التردد، وفهم التوحيد ولم يفهم النبوة. يكون بعض الناس قليلو الفراسة، إذ إن دليل التوحيد كان هو نفسه دليل النبوة، لكن أبا سفيان ظل يفرّق بينهما، فقد فصل بين التوحيد والنبوة.

يقول حضرته عليه السلام: كل الناس ليسوا على مستوى واحد. بعضهم يحتلون الدرجة الأولى مثل الصديق الأكبر رضي الله عنه وبعضهم يحتلون الدرجة الوسطى وبعضهم يحتلون الدرجة الأخيرة.

قال ابن عقبة: لما توجه أبو سفيان وحكيم بن حزام عائدَين قال العباس: يا رسول الله إني لا آمن أبا سفيان أن يرجع عن إسلامه فأردده حتى يفقه، ويرى جنود الله تعالى معك.

وروى ابن أبي شيبة أن أبا سفيان لما ولى، قال أبو بكر: يا رسول الله، لو أمرت بأبي سفيان فحُبس على الطريق؟ وقال ابن إسحاق: إن أبا سفيان لما ذهب لينصرف، قال رسول الله ﷺ للعباس: احبسه بمضيق الوادي.

فأدركه العباس فحبسه، فقال أبو سفيان: أغدرا يا بني هاشم؟ قال العباس: إن أهل النبوة لا يغدرون.

وفي رواية أنه قال: إننا لا نغدر أبدا، يجب أن تنتظر إلى الصباح لترى جنود الله وما أعَدّ الله للمشركين. فحبَسه العباس في الوادي إلى أن أصبح الصباح.

فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ هَذِهِ غِفَارُ قَالَ مَا لِي وَلِغِفَارَ. ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَمَرَّتْ سُلَيْمُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ مَنْ هَذِهِ قَالَ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَارُ عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ مَعَهُ الرَّايَةُ. فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ.

وفي رواية أخرى: فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان، قال: يا رسول الله أمرتَ بقتل قومك؟ ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال: ما قال؟ قال: كذا وكذا، وإني أنشدك الله في قومك، فأنت أبر الناس، وأوصل الناس، وأرحم الناس، فقال رسول الله ﷺ: كذب سعد يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا.

وقال ابن إسحاق: أن سعدا لما قال ما قال، سمعه رجل من المهاجرين. قال ابن هشام: هو عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له على قريش صولة.

وفي رواية أن عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، قالا ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فنزع اللواء من يده، وجعله إلى ابنه قيس.

وقد ذكر سيدنا المصلح الموعود ﷺ هذا الحادث بالتفصيل مستمدا من كتب التاريخ فقال: وخلال مرور جيش الإسلام على أبي سفيان، كانت راية الأنصار مع سعد بن عُبادة زعيم الأنصار، فوقعت عيناه على أبي سفيان، فقال:

اليوم أحل الله لنا دخول مكة بقوة السيف، اليوم أذل الله قريشًا. ولدى مرور الرسول ﷺ بقرب أبي سفيان رفع أبو سفيان صوته مخاطبًا الرسول وقال: يا رسول الله! هل أذنتَ بقتل قومك؟ إذ سمعت قبل قليل سيد الأنصار سعدا وأصحابه يتكلمون عن ذلك"؟ لقد قال بصوت عال: اليوم يوم الملْحَمة، اليوم تُسْتَحَلُّ حرمة مكة ولن تحول دون قتالنا اليوم، وسوف نهين قريشا. يا رسول الله، أنت أبرُّ الناس وأرحمُهم وأوصلُهم. ألا تتغاضى اليوم عما صدر من قومك من اعتداء وظلم؟ بسماع شكاية أبي سفيان والتماسه هذا فإن المهاجرين الذين كانوا يتعرضون للضرب والهوان في شوارع مكة والذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم لم يتمالكوا أنفسهم وخالجتْ قلوبهم مشاعرُ الرحمة بأهل مكة فقالوا يا رسول الله لا ندري كيف ستعامل الأنصار قريشا اليوم بسبب ما سمعوه من قصص الظلم والتعذيب الذي صُبّ علينا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي سفيان: لقد أخطأ سعد، بل اليوم يومُ المرحمة، اليوم يومُ يعز الله فيه قريشًا والكعبةَ. ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد يأمره أن يسلّم رايته لابنه قيس، فهو الذين يكون قائد الأنصار مكانه. لقد كان قرارًا سديدًا وخطوة حكيمة، هدّأت من روْع أهل مكة، فهو الذي يكون قائد كتيبة الأنصار.

وهكذا قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بجبر خواطر أهل مكة، كما حمى مشاعر الأنصار من أي صدمة. أما قيس هذا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثق به ثقة كاملة، فكان شابا طيبا حتى ورد في التاريخ أن بعض الناس جاءوا يعودونه في مرضه قبيل موته وبعضهم لم يأتوا، فسأل أصدقاءه وقال لماذا لم يأت البعض الذين هم من معارفي لعيادتي؟ فقال له أصحابه: "إنك جواد كريم، تقرض أموالك كلَّ إنسان يكون في ضيق، وكثير من أهل المدينة مدينون لك، ولم يأتوا لعيادتك مخافة أن تكون في حاجة إلى المال فتطالبهم بدَينك. فقال: إني متأسف على أني قد سببت الأذى لأصدقائي هؤلاء بدون داع، فلينادِ منادٍ في المدينة أني قد عفوت عن كل مَن لي عليه دَينٌ. وعقب هذا الإعلان زاره الناس بأعداد هائلة حتى انهارت درجات السُلّم في بيته.

وعن ابن أبي شيبة أن العباس رضي الله عنه قال: يا رسول الله ! لو أذنت لي فأتيت أهل مكة فدعوتهم فأمّنتهم؟ ثم انطلق على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء، ودخل مكة وقال: يا أهل مكة، أسلِموا تنجوا، فقد جاءكم جيش عرمرم لا قِبل لكم به.

يقول حضرة المصلح الموعود رضي الله عنه:

بعد مرور الجيش المسلم من أمام أبي سفيان الذي كان يراه طلب العباس منه أن يسرع إلى مكة ليُخبر أهلها أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء وأنه قد آتاهم الأمان على ذلك النحو. وكان أبو سفيان مسرورا في قلبه أنه قد وجد السبيل لنجاة أهل مكة، ولكن هند زوجتَه التي كانت شهيرة بتحريض الناس على معاداة المسلمين وحقدهم، وكانت مع كفرها شجاعة، فتقدمتْ وأمسكت بلحية زوجها ونادت بين أهل مكة قائلة: تعالوا واقتلوا هذا الشيخ الأحمق، فإنه يدعوكم إلى السلم والأمن بدلاً من أن يدعوكم إلى التضحية بأرواحكم دفاعا عن أنفسكم وذودًا عن شرف بلدهم.

فقال لها أبو سفيان أيتها المرأة الغبية، هذا ليس أوان مثل هذه التصرفات، اذهبي واختفي في بيتك، فقد رأيت جيشا لا قِبَلَ للعرب كلهم به.

ونقل البخاري رواية عروة بصدد دخول جيش المسلمين في مكة وهي: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر الزبيرَ رضي الله عنه أن يدخل مكة مِن أعلاها مِن طرف كداء ويغرز رايته في الحجون، ولا يترك ذلك المكان حتى يأتيه صلى الله عليه وسلم. والحجون جبل ناحية وادي المحسّب على مسافة ميل ونصف من بيت الله.

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه على ميمنة الجيش، وكان في كتيبته قبائل أسلمَ وسُليم وغِفار ومُزينة وجُهينة وغيرُهم، وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل من أسفل مكة من الليط، وأن يغرز الراية قريبا من البيوت. وجعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرجّالة أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه أن يكفّوا أيديهم عن قتال أحد إلا مَن قاتلهم.

وورد في ابن إسحاق أن صفوان وعكرمة وسهيل دعوا الناس لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجمعوهم بالخَنْدَمة (وهو جبل شهير في مكة على طريق مِنى)، وضوى إليهم ناس من قريش، وناس من بني بكر، وهُذيل، ولبسوا السلاح، وهم يقسمون بالله لا يدخلها محمد عنوةً أبدا.

وكان رجل من بني الديل يقال له جِماش بنُ قيس لما سمع بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يُصلِح سلاحه، فقالت له امرأته: لمن تعدّ هذا؟ قال: لمحمد وأصحابه (صلى الله عليه وسلم). قالت: والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيءٌ (كانت امرأةً ذكية) فقال لها جِماش في كبرياء وسخرية: إنى لأرجو أن أخدّمك بعضَهم، (أي سوف آتيك ببعض المسلمين غلاما لك)، فإنك محتاجة إليه. قالت، ويلك: لا تفعل، ولا تقاتلْ محمدا (صلى الله عليه وسلم)، واللهِ لَيَضِلَّنَّ عنك رأيُك، لو قد رأيتَ محمدا (صلى الله عليه وسلم) وأصحابَه. قال سترين. ثم إنه شهد الخندمةَ مع صفوان وعكرمة وسهيل. فلما دخل خالد بن الوليد من حيث أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد هناك جمعًا منعوه الدخول، وشهروا له السلاح، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة. فصاح خالد رضي الله عنه في أصحابه، وحصل قتال ضد هؤلاء المشركين، وقُتل منهم أربعة وعشرون رجلا من قريش، وأربعة أو ثلاثة من هُذيل.

وقال ابن إسحاق: أصيب من المشركين قريبا من اثني عشر أو ثلاثة عشر، وانهزموا أقبحَ الانهزام، مولين الأدبار في كل وجه، وصعدتْ طائفة منهم فوق رؤوس الجبال.

أما حِماش بن قيس الذي كان يرد على زوجته بكل فخر، فلاذ بالفرار ودخل بيته وقال لامرأته أغلقي عليّ الباب. قالت: فأين ما كنتَ تقول؟ فقد كنتَ تقول لي قبل قليل إنك ستأتيني بغلام؟).

فقال لها بنبرة المعتذر وأنشد أبياتا:

إنكِ لو شهدتِ يومَ الخندمةْ إذ فرَّ صفوانٌ وفرَّ عكرمةْ

واستقبلتهم السيوفُ المسلمةْ يقطعنْ كل ساعدٍ وجمجمة

ضربًا فلا تسمع إلا الغمغمةْ لهم نهيت خلفنا وهمهمة

لا تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وورد في البخاري: قُتل من خيل خالد بن الوليد يومئذ رجلان حُنيش بن الأشعر وكرْزُ بن جابر الفهري.

وجاء عن إعلان الأمان لأهل مكة أن النبي صلى الله عليه وسلم آتى أبا سفيان وحكيم بن حزام الأمان وقال اذهبا وأعلنا في مكة أن من ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل فناء الكعبة فهو آمن، ومن دخل بيت أبا سفيان فهو آمن، ومن دخل بيت حكيم بن حزام فهو آمن.

حينما كان أهل مكة ينالون الأمان لم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه العشاق الذين كانوا يفدونه بأرواحهم. لا شك أنه صلى الله عليه وسلم تذكّرَ عندها التعذيب والأذى الذي كان يُصَبّ عليهم في شوارع مكة. كان في هذا الجيش الفاتح بلال رضي الله عنه الذي كان أهل مكة يقيدونه ويجرونه بالحبال في سككها على الحجارة، وكانت مشاهد ذلك التعذيب والاضطهاد قد تجددت اليوم في قلبه وذهنه. فارتأى النبي صلى الله عليه وسلم لزاما عليه أن ينتقم لبلال أيضا، وما أروعَه من انتقام أخذه له. يقول حضرة المصلح الموعود رضي الله عنه بهذا الصدد:

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قال نصنع الآن راية لأبي رويحة وهو الذي كان قد آخي بينه وبين بلال العبد الحبشي، وقال ﷺ فمن جاء تحت رايته فهو أيضا آمن. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال أن يعلن بين القوم: من جاء تحت راية أبي رويحة فهو آمن.

ما أروعَ وألطفَ الحكمةَ الكامنة في هذا الأمر النبوي. كان أهل مكة يقيدون بلالا بالحبال ويجرونه في أزقة مكة. لم تكن أزقتها وميادينها مكانا آمنا لبلال، بل كانت مكان تعذيب وإذلال وسخرية منه. ففكر النبي صلى الله عليه وسلم أن قلب بلال لا بد أن يكون اليوم ميالا إلى الانتقام، وأنه لا بد لي من الانتقام لصاحبي الوفي هذا، ولكن لا بد أيضا أن يكون انتقاما يليق بعظمة الإسلام. فما انتقم النبي صلى الله عليه وسلم لبلال بضرب أعناق أعدائه بالسيف، بل آتى أخاه راية وأمره بالوقوف هناك وأمر بلالا أن يعلن بين الناس أن من أتى تحت راية أخي فهو آمن. فما أروعَه من انتقام وأجملَه.

عندما كان بلال يعلن بين القوم أنْ تعالوا تحت راية أخي إن أردتم الأمان، فلا شك أن قلبه كان يتطهر باستمرار من مشاعر الانتقام وكان قد أدرك أنه من المستحيل أن يكون هناك انتقام هو أعظم وأجمل من هذا الذي اختاره لي محمد رسول الله ﷺ.

وقد بين حضرة المصلح الموعود هذا الأمر في موضع آخر كالآتي: إن أروع ما في هذه الواقعة هو راية بلال. يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم راية لبلال ويقول: من جاء تحت راية بلال فهو آمن، (طبعا المراد هنا راية أخي بلال). كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو السيد، ولكنه لم ينصب لنفسه أي راية.وأكبر المضحّين بعده ﷺ كان أبا بكر رضي الله عنه ولكن لم تُنصب له أيضا راية. والزعيم الذي آمن بعده كان عمر ولم تُنصب له أيضا راية، ثم كان عثمان رضي الله عنه يحظى بشعبية كبيرة وكان صهرَه ﷺ ولم تُنصب له أيضا راية. ثم كان عليّ الذي كان أخاه ﷺ وصهره ولم تُنصب له أيضا راية، ثم كان عبد الرحمن بن عوف الذي قال النبي ﷺ عنه بأنه لن يتطرق الخلاف إلى الأمة ما دام حيا، ولم تُنصب له أيضا راية، ثم كان العباس عمه ﷺ وكان أحيانا يسيء إلى النبي ﷺ أيضا ولم يكن ﷺ يسخط عليه، ولكنه ﷺ لم ينصب له أيضا راية، إضافة إلى ذلك كان هناك زعماء كبار كلهم، بمن فيهم خالد بن الوليد الذي كان ابن زعيم وكان بنفسه رجلا كبيرا، وعمرو بن العاص كان ابن زعيم وكذلك كان هناك أولاد زعماء كبار ولكن لم تُنصب لأحدهم رايةٌ وإنما نصبت راية لبلال رضي الله عنه وحده، فما السبب في ذلك يا تُرى؟ كان السبب وراء ذلك أنه عندما كان الهجوم سيُشنّ على مكة كان أبو بكر رضي الله عنه يرى أن الذين سيُقتلون هم إخوته وأقاربه وقد قال أيضا من قبل: يا رسول الله هل ستقتل إخوتك؟ فكان قد نسي المظالم وعلم أنهم إخوته. ومع أن عمر رضي الله عنه أيضا كان يقول: اقتل يا رسول الله هؤلاء الكفار ولكنه ﷺ حين عفا عنهم لا بد أن يكون عمر سعيدا من الأعماق على أنه قد عُفي عن إخوته. وربما كان قد قال ذلك عثمان وعلي أيضا أنه قد عفي إخوتهما ولا بأس إن كانوا قد مارسوا القسوة من قبل، من الممكن أن يكون النبي ﷺ أيضا يُفكِّر عند العفو عنهم أن فيهم عمّه وإخوته وصهره وغيرهم من الأقارب، كذلك عثمان وعلي لا بد أن يقولا إنه قد عُفي عن إخوتنا ولا بأس إن كانوا قد مارسوا علينا القسوة من قبل. من الممكن أن يكون النبي ﷺ أيضا يُفكِّر عند العفو عنهم أن فيهم عمّه وإخوته وصهره وغيرهم من الأقارب، وإن عفوه عنهم كان مستحسنا إذ قد نجا أقاربه. ولكن كان هناك شخص وحيد لم يكن له أقارب في مكة ولم يملك أية قوة في مكة ولا صديق، فكان المسكين يُظلم بما لم يُظلم به أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، بل لم يُظلم بمثله رسولُ الله ﷺ أيضا. كان بلال وحده يُطرح عاريا على الرمال الحارقة. ترون أنكم لا تستطيعون أن تمشوا حفاة في شهر أيار وحزيران حتى في هذه البلاد حيث الحرارة منخفضة نسبيا أما في البلاد الحارة فيتعذر المشي حفاة، ولكنه كان يُطرح على الرمل الحارق عاريا، وكان الشباب يرقصون على صدره لابسين أحذية فيها مسامير حديدية، ويطلبون منه أن يقول بأن هناك آلهة سوى الله، وأن محمدا رسول الله كاذب. فكان

يقول بلهجته الحبشية: "أسهد ألا إله إلا الله، أسهد ألا إله إلا الله"، ويرد عليهم قائلا: ما دمتُ قد رأيت أن الله واحد، فأنّى لي أن أقول أن هناك أكثر من إله مهما مارستم علي المظالم؟ وما دمت أعلم جيدا أن محمدا رسول الله ﷺ صادق، فأنّى لي أن أكذِّبه؟ فكانوا يعودون إلى ضربه، ويستمر الحال على هذا المنوال في شهور الصيف. أما في الشتاء فكانوا يربطون قدميه بحبل ويجرونه على الحجارة في أزقة مكة فيتشقق جِلده. ثم يطلبون منه أثناء الجرّ أن يُكذّب محمدا رسول الله (ﷺ) ويعترف بآلهة سوى الله، فكان ﷺ يقول: "أسهد ألا إله إلا الله، أسهد ألا إله إلا الله". أما الآن فحين جاء جيش المسلمين لدخول مكة وكان قوامه عشرة آلاف، فلا بد أن يكون قد خطر ببال بلال ﷺ أنه سيُنتقم اليوم نيابة عنه لتلك الأحذية، وأنه سيتلقى الأجر على المظالم التي صُبّت عليه. وحين قال رسول الله ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل بيت الله فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن دخل بيته وأغلق أبوابه فهو آمن، فلا بد أن يكون قد خطر ببال بلال أنه ﷺ قد عفا عن إخوته وأقاربه، وقد أحسن الصنعَ، ولكن لم يُنتقَم لي. أما النبي ﷺ فرأى أن هناك شخصا واحدا فقط يمكن أن يتأذى بعفوه وهو بلال، لأن الذين عُفي عنهم ليسوا إخوته، مع أن الإيذاء الذي تكبّده هو لم يواجهه غيرُه. فقال رسول الله ﷺ بأني سأنتقم له، وسأنتقم بأسلوب يُبقي شأن نبوتي قائما، ويفرح بذلك بلال أيضا. فقال ﷺ: انصبوا راية لبلال وقولوا لزعماء مكة –الذين كانوا يرقصون على صدره لابسين نعالهم، وكانوا يجرّونه بربط قدميه بالحبال ويطرحونه على الرمال الحارقة– إذا كنتم تريدون أن تنقذوا حياتكم وحياة أولادكم فأوُوا إلى راية بلال.

إنني أرى أنه لم ينتقم أحد مثل هذا الانتقام العظيم من أحد منذ خُلقت الدنيا، ومنذ أن حاز الإنسان قوة وأقدم على أخذ ثأر الدم من غيره. عندما نُصبت لبلال رايةٌ في الميدان أمام الكعبة وكان زعماء العرب – الذين كانوا يدوسونه تحت الأقدام ويُكرهونه على أن يُكذِّب محمدا رسول الله– يندفعون مع أولادهم تحت رايته إنقاذا لحياتهم، يمكنكم أن تتصوروا كم يكون قلب بلال ﷺ وروحه تُفادي رسول الله ﷺ! لا بد أن بلالا كان يقول عندئذ في نفسه: لا أدري هل كنت سأنتقم من هؤلاء الكفار أم لا، وهل كنت سأستطيع الانتقام منهم أم لا، ولكن ها قد انتُقم نيابة عني بحيث جُعل كل شخص كانت أحذيته تطأ صدري يخضع أمامي.

كان هذا الانتقام أفضل وأعلى شأنا من انتقام يوسف من إخوته؛ لأنه عفا عن إخوته من أجل أبيه، ولكن النبي ﷺ عفا عن أعمامه وإخوته جبرًا لخاطر خادمه الذي كان يُضرب بالنعال. فأين انتقام يوسف من هذا الانتقام.

رجل ضعيف قد مضت طفولته وشبابه بصفته عبدا لسادة قريش، قد واساه النبي ﷺ وأكرمه إكراما لا مثيل له في تاريخ العالم. سيبقى ذلك تذكارا للأبد، فهذه هي أسوة سيدنا ومطاعنا في الانتقام. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

لقد قال ابن هشام: كان شِعَارُ الْمُهَاجِرِينَ يَوْمَ فَتْحِ مَكّةَ: يَا بَنِي عَبْدِ الرّحْمَنِ، وَشِعَارُ الْخَزْرَجِ : يَا بَنِي عَبْدِ اللهِ، وَشِعَارُ الْأَوْسِ: يَا بَنِي عُبَيْدِ اللهِ.

حين جاء النبي ﷺ إلى الطريق الجبلي اذاخر وهو الاسم الثاني لقزاح، فمن هناك دخل مكة يوم فتحها، ورأى بصيص السيوف قال ألم أمنعكم عن القتال؟ فقيل له إن العدو هاجم خالدا وهو دافع عنه، فقال ﷺ إن حكم الله خير، أي أن الله ﷻ يريد أن يثبت لأهل مكة أنهم لا يستطيعون منع المسلمين من دخول مكة بالقوة، فهو حكم الله ولا مانع له. فهذا تفصيل بدائي لدخول مكة، وسأتابعه مستقبلا أيضا إن شاء الله.

الآن أريد أن أذكر مرحومة وسأصلي عليها جنازة الغائب بعد الصلاة. اسمها أمينة شهناز، زوجة السيد إنعام الله من لاهور، فقد توفيت في الآونة الأخيرة عن عمر يناهز سبعة وخمسين عاماً. إنا لله وإنا إليه راجعون. دخلت الأحمدية عائلتها عن طريق والدها الكريم السيد محمد دين الذي ذهب إلى قاديان عام ١٩٣٤م يوم كان سنه خمس عشرة سنة ليبايع على يد سيدنا الخليفة الثاني. كانت المرحومة بفضل الله تعالى منخرطة في نظام الوصية. تركت خلفها زوجها وابنا واحدا وأربع بنات. ابنها وجيه الله المحترم يخدم الجماعة في السنغال بصفته داعية إسلاميا أحمديا، ولكونه في ميدان العمل لم يستطع حضور جنازة والدته ومراسم دفنها.

يقول ابنها الداعية وجيه الله المحترم: كانت والدتي امرأة صالحة جدا. فكانت محافظة على الصلاة والصوم وتقرأ القرآن الكريم بانتظام. كانت تهتم بتربية أولادها أيضا جيدا. كانت تحب الخلافة الأحمدية حباً جماً، وكلما تعرضت لعسر أو يسر قالت لي: اكتب رسالة إلى خليفة الوقت. كانت تكرم الضيوف كثيرا وتخدمهم أكثر من سعتها. كانت تعامل الجيران غير الأحمديين أيضا بلطف رغم أن بعضهم كانوا يعارضون، لكنها كانت تؤدي حق الجيران دائماً.

يقول زوجها السيد إنعام الله: عاشت المرحومة معي أفضل حياة. فقد ساندتني في جميع ما وُفقت لخدمة الجماعة طوال الحياة، مساندة كاملة. إذا اضطررتُ للبقاء خارج المنزل طوال النهار أو الليل بسبب أعمال الجماعة، لم تشتكِ أبداً. كانت مضيافة، فقد أعدت الطعام بنفسها لحوالي اثنين وعشرين ضيفاً من الجماعة حتى قبل شهر من وفاتها. كانت تساعد الفقراء بكل ما في وسعها. وكانت تدفع التبرعات نيابة عن أقاربها المرحومين أيضاً. سعت لتربية أولادها بأفضل طريقة. خدمت فترة طويلة كسكرتيرة مال في منطقتها، وكانت مكلفة بنفس الخدمة وقت وفاتها.

يقول أخوها الأكبر: كانت أختي مُحبة وعطوفة على الجميع. كانت تداوم على الصلوات الخمس منذ الطفولة، وتؤدي صلاة التهجد أيضا، وتحب الخلافة حباً جماً، وكانت تتلو القرآن الكريم بانتظام. كانت تحثّ أولادها وأولاد الآخرين في العائلة الذين يأتون إلى منزلها على المحافظة على الصلاة وتلاوة القرآن.

كانت لها علاقة طيبة حتى مع الذين ليسوا من الجماعة. تقول إحدى الجارات غير الأحمديات: كانت لي معها علاقة عشرين عاماً، وكانت تعاملني كالأخت، وتعامل أولادي كالأم، وهم أيضا كانوا ينادونها "الأم الحنون". كانت تقدم دائماً أفضل مشورة في كل أمر. في غير الأحمديين أيضاً شرفاء يحافظون على العلاقة ويقدرونها أيضا.

تقول رئيسة لجنة إماء الله في رجنا تاون: لقد فقدَ فرعُنا للَجنة إماء الله برحيل المتوفاة عضوة مخلصة جداً ووفية لنظام الجماعة. كانت تنجز أعمال سكرتيرة المال في اللجنة بإخلاص شديد منذ حوالي عشرين عاماً. كانت تشارك بنشاط في مشاريع الجماعة. لم تكن تُعيد أحداً خالي اليدين مهما كانت الظروف. كانت تصوم كل يوم خميس في الصيف وهذا ما كتبتْ بناتُها أيضاً. عندما كان يُقام أي برنامج في منزلها، كانت تقبله بصدر رحب وتكرم الضيوف.

غفر الله لها ورحمها. ابنها الوحيد داعية، ولم يستطع حضور الجنازة لكونه في ميدان العمل كما ذكرت من قبل. ألهمه الله أيضا الصبر والسلوان وجعل جميع أولادها ورثة لدعواتها.

***